فرصة استثمارية في موسم الإحسان

د. مرهف عبد الجبار سقا
دكتوراه بالتفسير وعلوم القرآن - الأستاذ المساعد في كلية التربية
جامعة المجمعة - المملكة العربية السعودية

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:
فإن خُلُق الإحسان للناس وعبادة تفقد أحوالهم من المعايير الأخلاقية الراقية المرتبطة بالركن الثالث من أركان الدين وهو "الإحسان العقدي"، الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله صلى الله عليه وسلم: (**أن تعبد الله كأنك تراه**)[1]، وهذا من أوجه التكامل بين إيمان المسلم وسلوكه.

يتلخص مفهوم الإحسان بأمرين:

- **أحدهما**: مفهوم يتعلق بالخالق سبحانه وتعالى، فكلما زادت علاقة المؤمن بربه ومراقبته له؛ زادت مرتبته عند الله وارتقت درجته.
- **الثاني**: مفهوم يتعلق بالمخلوق، ويتلخص هذا المفهوم بأن ينتفع الناس بك، ثم إن هذا الانتفاع على درجات، أعلاها أن تقابل الإساءة بالحسنة، ثم أن ينتفع الخلق بك دون مقابل، ثم أن تعطي الآخرين حقوقهم وتزيد عليها، ثم أن تعطي للناس قيمتهم التي يستحقونها في التعامل وتقديرهم اللائق بهم، وهكذا تتوالى درجات الإحسان للخلق.

وإن المفهوم الثاني للإحسان يرتبط بالمفهوم الأول ارتباطًا وثيقًا، وكأنه لازم عنه، وكلا المفهومين يوثق عرى الآخر ويكمله وكأنهما متلازمان لا ينفكان، وهذا كما سبق من أوجه الكمال في مفاهيم الإسلام وبناء الشخصية المسلمة.

وكلما زاد المسلم في مقامات الإحسان العقدي كلما زاد في سلوك الإحسان الخُلُقي ويشهد لذلك ما روي عن أَنَس؛ أَن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَّم قَالَ: (**الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ؛ وَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لعياله**)[2].

[1] أخرجه البخاري ومسلم
[2] أخرجه أبو يعلى والبزار، والحارث في سنده، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج.

فانظر إلى هذا الترابط بين مفهومي الإحسان الذي دل عليه الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم **(وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)**، ذلك لأن مقام المحبة من مقامات الإحسان، ومن أسباب الوصول إلى هذا المقام أن يسعى المؤمن في نفع العباد، وكلما زادت مراقبة العبد لربه زاد نفعه للعباد، وكلما زاد نفعه للعباد انعكس ذلك على قربه أكثر من الله.

فعلاقة العبد بربه المبنية على الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) تقتضي يقين العبد بأن الرازق والمعطي والمانع هو الله، وأن يشهد ذلك في إنفاقه وبذله، ومرجع هذا الاعتقاد إلى قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** [البقرة: ٢٥٤].

فالإنفاق عند المؤمن مرتبط بقوة اعتقاده بأن الله مالك كل شيء، وأنه هو الرازق، وأن الله سيجازيه على إنفاقه يوم القيامة، وكأن الإنفاق شاهد على إيمان العبد بالله وباليوم الآخرة، ويشهد لهذا المعنى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(الصدقة برهان)**[1]، لأنها برهان على إيمانه ويقينه.

وإن يقين المؤمن بما عند الله يجعل نفعه مستمرا بل صفة لازمة له في السراء والضراء، قال تعالى معدداً صفات المتقين: **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** [آل عمران: ١٣٤].

فاليقين الذي يمتلكه المؤمن بربه وباليوم الآخر يجعله ينفق في أحواله كلها، يقول ابن عاشور رحمه الله: (أي في حالي الاتصاف بالفرح [السراء] والحزن [الضراء]، وكان الجمع بينهما هنا لأن السراء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة؛ فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقًا لا يحجبهم عنه حاجب ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة).

ولما ذكر الله تعالى الإنفاق في السراء والضراء في أول صفات المتقين؛ علمنا أنها أعلى الصفات وأرقاها، ولعل أفضلها هي في الإنفاق عند الضراء، أي عندما يكون المسلم في فقر وحاجة وقلة مؤنة، ذلك لأن الإنفاق في حالة السعة يستطيعه كل إنسان يريد الإنفاق، أما عندما تنفق وأنت تحتاج هذا المال بدافع

[1] رواه مسلم ح (223).

يقينك أن الله سيخلفه وأن الله سيعوضه وأن الله لن يضيعك، فهذه هي مرتبة الإحسان، كما في الحديث عنْ أَبِي هُرَيرَةَ قَال: أَتَى رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ فَقَال: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَال: **(أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلا تُمْهِلَ [أي لا تتأخر] حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلانٍ كَذَا، وَلِفُلانٍ كَذَا، أَلا وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ)**[1]. فالإنفاق في حالة الحاجة والحزن يجتمع عندها في المؤمن مفهوما الإحسان: مراقبة الله ويقينه بما عنده، وحبه للتقرب من الله بنفعه لعباده، فعندها يكون يقينه بما عند الله كيقينه بما بين يديه، وعندها تشمله رحمة الله في قوله تعالى: **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** [الأعراف: ٥٦].

فإذا كنا نسأل الله رحمته، فلنستنزلها باتخاذ الأسباب ومن أعظمها الإنفاق، فهو من أسرع الأبواب إلى رحمة الله، ومصداق ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: **(الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)**[2].

وإن ما تعيشه مجتمعاتنا اليوم جراء هذا الوباء الذي قدره الله تعالى على الخلق، مما ألجأهم إلى الانحسار إلى البيوت احترازاً من تفشيه، وأخذا بالشريعة التي تأمر بالأخذ بالأسباب؛ وتوقفت أعمال كثير من العباد الذين كانوا يعتاشون باليومية، وتوقفت مصانع وأشغال كانت سبباً في دوام الستر على الناس، إن هذه الحالة تستدعي أهل الإيمان أن يبرهنوا على صدق ارتباطهم بربهم وحبهم للتقرب من الله تعالى من خلال الإنفاق ونفع الخلق من المال الذي وفقهم الله لجمعه، فهذا يوم البرهان الإيماني.

ونختم بالتأكيد بأن هذا الوباء (كورونا) قضاءُ الله تعالى ابتلاءً لخلقه، فأما المحسنون فإنهم يستثمرون هذا الابتلاء ليعود عليهم بالقرب من الله واستنزال رحمته.

فاللهم نسألك أن تعيننا على ما يرضيك، وأن تكشف عنا ما نزل بنا من بلاء، وأن تتلطف بنا وبعبادك أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

[1] أخرجه البخاري ومسلم.
[2] أخرجه أبو داود والترمذي والإمام أحمد بإسناد صحيح.